جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية/ قسم اللّغة والأدب العربي/ وحدة أدب شعبي مغاربي
السنة الثالثة أدب / أ. ريـــلـــي

المحاضرة الرابعة: أشكال التعبير في الأدب الشعبي المغاربي(مفاهيم عامة)

تمهيد: الأدب الشعبي هو مجمل الفنون القولية التلقائية، التي تنتقل من جيل لجيل عن طريق الشفاهية، وتشمل هذه الفنون على: السّير، والملاحم، والحكاية الشعبية، والمثل الشعبي، والأغنية الشعبية، والنادرة والنكتة الشعبية واللغز...إلخ.

سنحاول في هذا المحاضرة تعريف أهم أشكال التعبير الشعبي المغاربي، وتحديد أهم مميزاته، على أن نعود مرة أخرى في محاضراتنا المقبلة لدراسة كل شكل على حدة بأكثر دقة وتفصيل.

أ . **أشكال التعبير في الأدب الشعبي المغاربي:** وهي أشكال متعددة، نذكر منها ما يلي:

1. الأسطورة:

يعرّف فراس السوّاح الأسطورة بأنّها« حكاية مقدسة يلعب أدوراها الآلهة وأنصاف الآلهة، أحداثها ليست مصنوعة أو متخيلة، بل وقائع حصلت في الأزمنة الأولى المقدّسة، إنّها سجل أفعال الآلهة، تلك الأفعال التي أخرجت الكون من لجّة العماء، ووطدت نظام كلّ شيء قائم، ووضعت صيغة أولى لكل الأمور الجارية في عالم البشر، فهي معتقد راسخ الكفر به فقدان الفرد لكل القيم التي تشده إلى جماعته وثقافته، وفقدان المعنى في هذه الحياة »[1]، وتعرّفها نبيلة إبراهيم بأنّها« محاولة لفهم الكون بظواهر متعددة، أو هي تفسير له، إنّها نتاج وليد الخيال ولكنها لا تخلو من منطق معين ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد »[2]. ومن هنا يمكننا القول بأن الأسطورة شرحت لنا المراحل التي مرّ بها تفكير الإنسان البدائي في فهم طبيعة الكون، وفي تسمية مظاهره.

تتميز الأسطورة بمجموعة من الخصائص، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

.أنّها قصة مكتملة الشكل، لها بداية ووسط ونهاية.

. مجهولة المؤلف.

. شخوصها من الآلهة أو أنصاف الآلهة أو أبطال المؤلهين.

. تعطي للحيوان صفة البشر فتجعله يتكلم ويشعر ويُحاور.

. تجري أحداثها في الزمن المقدس، وهي مزيج من الحقيقة والخيال.

. لها علاقة بالتاريخ، والدين.

وكما اختلف الباحثون في تعريف الأسطورة وتباينت آراؤهم، اختلفوا كذلك في تحديد أقسامها، فقد قسمتها الدكتورة نبيلة إبراهيم على خمسة أنواع، هي[3]: الأسطورة الطقوسية (الكونية)، والأسطورة التعليلية والأسطورة الحضارية، والأسطورة الرمزية، وأسطورة البطل المؤله.

بينما قسّمها طلال حرب على ستة أنواع هي[4]: أسطورة التكوين، والأسطورة الطقوسية، والأسطورة التعليلية، والأسطورة الآلهة، والأسطورة الرمزية، والأساطير البطولية.

وقسمها جاكوبسون **jakobson** على ثلاث أنواع هي[5]: ميثات الأصول(وتسمى أيضا ميثات الإيتيولوجية التعليلية)، وميثات التنظيم، وميثات القيمة.

2. السّيرة الشّعبية:

هي ذلك الفن الشّعبي الذي يعبّر عما يجيش بالوجدان الشعبي من آمال وطموحات وأحلام. يعرّف طارق عبد منعم السير بأنّها«أحد النتاجات الفنية للوجدان الشعبي فنحن لا نعرف مؤلّفيها، ولا نعرف صورتها الأولى حين نشأتها، حيث ساهم وجدان الجماعة

في خلق هذه الموضوعات القصصية، وشارك في تعديلها وتطويرها وتذوقها »[6]، أمّا رشدي صالح فيرى أن السّير الشّعبية« لون من القصص الطويل، الذي يتراوح بين النثر والشعر، ويدور حول البطولات والفروسية »[7]، وتمتزج فيه مجموعة من الفنون الأخرى كالرّواية والعزف والغناء والتمثيل.

ترتبط السّيرة الشّعبية بتواريخ وأحداث وواقع، يلعب فيها الخيال الجامع دورا كبيرا في سرد الحوادث التي تمتزج بالخوارق والمبالغات«ويرى بعض الدّارسين أن هذه السّير الشعبية بقصصها وحكاياتها، هي في معظمها ردود على مشكلات نفسية واجتماعية متقاربة المضمون والهدف، تؤدي وظائف اجتماعية وتربوية تتوجّه إلى أكثر من قطاع في الحياة العامة، وهي منغرسة في اللاوعي الجماعي، نظرا للتفسيرات والتبريرات التّي تُقدّمها لسامعها ليس فقط، بل تؤدي أدورا وطنية سياسية نضالية، عندما تكون ملجأ لشعب أو أمة في مراحل الضعف والركود، أو الوقوع تحت نير احتلال خارجي »[8].

ومن أشهر السّير العربية المعروفة نذكر: سيرة عنترة، وسيرة الأميرة ذات الهمة والسّيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة علي الزيبق، وسيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة حمزة البهلوان، وسيرة فيروز شاه، وسيرة أحمد الدنف.

3.الحكاية الشّعبية:

شكل تعبيري قديم عرفته كلّ المجتمعات البشرية منذ فجر تاريخها يعرّف فوزي العنتيل الحكاية الشعبية بأنّها« الحكاية النثرية المأثورة التي انتقلت من جيل إلى جيل، سواء كانت مدونة، كأن تظل القصة تروى بواسطة مؤلف نقلا عن مؤلف آخر، أو اعتمدت على الكلمة المنطوقة تنتقل من شخص إلى آخر، بمعنى أنّ الحكاية تظل تسمع وتروى بإضافات، أو

بدون إضافات أو تغييرات يدخلها الرّاوي الجديد»[9]، إلى جانب ذلك فإن« الحكاية الشعبية تحمل علامة المجتمع الذي تنشأ فيه، وتتعلق العناصر المكونة لها بالثقافة والعادات، وهي تحمل معنى للمجتمع الذّي يعبّر عنها ويعبّر عنه، والحكاية الشعبية تعكس النّظام في البلاد بدرجاته وطبقاته، وتكشف بوضوح عن تصرفات الرؤساء تجاه مرؤوسيهم »[10]، ونقد سلبيات المجتمع بهدف وإصلاحه وغرس المثل العليا والقيم النبيلة فيه.

فمن خلال هذين التعريفين، نستنتج أن الحكاية الشعبية هي كل إبداع شعبي منطوق أو مكتوب، ينتقل من شخص لآخر، ومن مكان إلى لآخر عن طريق الرواية الشفوية، يؤديها كما سمعها، أو يُحدث فيها تغييرات بالإضافة أو الحذف، وهي ذات صلة بالنواحي السياسية والاجتماعية التّي عاشها الإنسان.

تتسم الحكاية الشعبية بمجموعة من السمات دون غيرها من أشكال التعبير الشعبي إذ أنّها«رد فعل للظلم الواقع على المضطهدين، إنّها بيئة يسيطر فيها السّادة ويحققون رغباتهم، ويوجد دائما من يساعد البطل في هجومه أو دفاعه، وهذه المساعدة هي الفضيلة الرئيسية التي تفوق كلّ النزاعات الأخرى، فالقوى الخارقة للطبيعة تساعد الضعيف والفقير والطفل»[11]، فالمهتمين بالحكاية الشّعبية هم الطبقة العامة لأنّها ترجعهم إلى واقعهم المعيش وهي دائما وأبدا تنتصر لهم وتساعدهم أن يحققوا أهدافهم.

تعددت أشكال الحكاية الشعبية وأنواعها من باحث إلى آخر، إلاّ أننا نجد بعض التقاليد الثابتة المشتركة بينها، وهي أن يبدأ الرّاوية عن طريق السرد بمقدمة ثابتة، ثم يسترسل في سرد الحكاية ثم يصل إلى الخاتمة، فالحكايات الشعبية تختلف في جوهرها وتتفق في الاستهلال والختام.

4.الأغنية الشّعبية:

وهي من أهم الفنون الشعبية التي عرفت رواجا كبيرا بين عامة النّاس، فقد سجّل الإنسان القديم افتتانه بفن الغناء والإنشاد، للدور الذي تلعبه الأغنية في حياته اليومية، فهي كانت ترافقه أينما حلّ في البيت والحقل والعمل، وعبّرت عن مشاعره وأفراحه وأحزانه وتطلعات مجتمعه.

يُعرّفها فوزي العنتيل بأنّها« قصيدة غنائية ملحنة، مجهولة النشأة، نشأت بين العامة من النّاس في أزمنة ماضية، وبقيت متداوله أزمانا طويلة، وفي هذا النوع من الأغاني لا يهتم النّاس بمؤلف ولا ملحن »[12]، وهي تتسم بسرعة انتشارها وذيوعها، وذلك لمناسبة موضوعاتها واقع الإنسان واهتماماته، فهي تُؤدى في الأعراس وبعض المناسبات الاجتماعية المختلفة، وفي الجنائز، وفي العمل، وفي التعبير عن بعض القضايا المحلية والوطنية.

5. المثل الشّعبي:

من أكثر أنواع الأدب الشعبي المغاربي ذيوعا وانتشارا بين العامة، عبّر من خلاله المبدع الشعبي عن مشاعره وأفكاره وتصوراته وعاداته ومعتقداته آلامه وأمانيه، وهو« يعتمد في تداوله بين النّاس على الشفاهية المبنية في أساسها على الارتجال والاستماع والحفظ والاستعادة، وقد كانت مهارة الحفظ من المسائل ذات القيمة في الثقافات الشفاهية، وحتى يتحقق الحفظ بيسر وسهولة، لا بدّ أن يتمتع المثل بسمات معينة تعين على الحفظ، وأبسط هذه السمات توفّر المثل على الإيقاع الذّي يعطي الكلمات والجمل نوعا من البروز والوضوح من منظور التلقّي، كما يساعد على تثبيتها في الذاكرة واستعادتها كلما دعت الحاجة»[13].

يمتاز المثل الشعبي بمجموعة من الخصائص هي:«إيجاز اللّفظ، وحسن المعنى ولطف التشبيه، وجودة الكناية، ولا تكاد تخلو منه أمة من الأمم، ومزية الأمثال أنّها تتبع من كلّ الطبقات »[14] المتعلمة منها والأمية، وتنتشر في المدن والأرياف.

الأمثال وسيلة مهمة في عملية الاتصال وتوضيح المعاني والأفكار للآخرين، وقد بيّن د.يوسف حداد أهميتها بقوله أنّها:« تلقي الدروس بأسلوب من المرح الحاذق، وهي مليئة بكنوز من الأحكام السليمة، والحكمة العملية، والعدالة والمشاركة العاطفية ثم السّخرية اللاذعة الذكية»[15].

6. اللّغز الشّعبي:

اللّغز شكل من أشكال التراث الأدبي الشعبي المغاربي الذي عرف انتشارا وذيوعا بين النّاس، وهو فن القديم قدم الأسطورة والحكاية الخرافية، وهو عبارة عن كلام غامض فيه تعمية، يقصد به أمرا ما، يدرك من خلال عناصر لها وجه الشبه بالمعنى المقصود الذي أبهمته التعمية في الكلام أو الأسماء أو الأفعال، وهذا ما تؤكده نبيلة إبراهيم في قولها:« اللّغز في جوهره استعارة، والاستعارة تنشأ نتيجة التّقدم العقلي في إدراك التّرابط والمقارنة وإدراك أوجه الشبه والاختلاف، على أن اللّغز فضلا عن ذلك يحتوي على عنصر الفكاهة، التي تنجم عن احتواء اللّغز لعنصر المفاجأة »[16].

اللّغز وسيلة من وسائل التسلية والتسرية عن النفوس، وإزجاء وقت الفراغ، وهو يتطلب وجود طرفين هما السائل والمسؤول، وعادة ما يكون السائل عارفاً بالحلّ، والغاية من طرح اللّغز هو اختبار ذكاء الفرد ونباهته وقدرته على الإجابة.

7.النكتة الشّعبية:

وهي فن شعبي مغاربي يجتمع فيه المغزى الترفيهي الذّي يُؤدي إلى الضحك مع السخرية والنقد الاجتماعي، وهي لا تنشأ بين كل طبقات الشعب خاصة منها الساذجة« وإنما تنشأ بين الطبقات التي تعيش الحياة في أعمق أعماقها »[17].

تعد النكتة الشعبية أكثر وسائل الضحك شيوعا في العالم، وهي متنوعة بتنوع موضوعاتها نذكر منها: النكتة الاجتماعية، والنكت النقد الاجتماعي، والنكت الدينية، والنكت الإدارية.

. المصادر والمراجع:

1. إبراهيم نبيلة، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، ط3، دار غريب، القاهرة، 1981.
2.أوسوس محمد، كوكرا في الميثولوجيا الأمازيغية، مطبعة المعاف الجديدة، الرباط، 2008.
3. حرب طلال، أولية النص(نظرات في النقد والقصة والأسطورة والأدب الشعبي)، ط.1 المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1999.
4. داود أماني سليمان، الأمثال العربية القديمة(دراسة أسلوبية سردية حضارية)، **المؤسسة** العربية للدراسات والنشر بيروت، 2009.
5. السواح فراس، مغامرة العقل الأولى(دراسة في الأسطورة سوريا، أرض الرافدين)، ط.5 دمشق، 1988.
6. صالح رشدي، الفنون الشعبية، المكتبة الثقافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، 1961.
7. صحراوي إبراهيم، السّرد العربي القديم(الأنواع والوظائف والبنيات)، ط.1، منشوات الاختلاف، الجزائر، 2008.
7. عبد الرزاق طارق عبد المنعم، المؤثرات التراثية في أعمال الجيل الثالث من كتاب المسرح المصري، رسالة ماجستير مخطوط، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، 2002.
8. العنتيل فوزي، بين الفولكلور والثقافة الشعبية، القاهرة، الهيئة المصرية للكتاب، 1978.

9. العنتيل فوزي، عالم الحكايات الشعبية، مكتبة الدراسات الشعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 1999.
10. مهنا غراء حسين، الحكاية والواقع، مجلة فصول، المجلد 3، ع.4، الهيئة المصرية للكتاب، مصر، 1983.
11. يوسف حداد، المجتمع والتراث في فلسطين(قرية البصة)، ط.1، مركز الأبحاث م.ت. ف، 1985.
12. يونس عبد الحميد، الحكاية الشعبية، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر 1968.